الفصل الرابع

★ *فيما يكون للباطل من إملاء واستدراج.*

الآيـــــات

١ - ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

(آل عمران: ١٧٨)

٢ - ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾

(الاعراف: ١٨١ - ١٨٣)

٣ - ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(الرعد: ٣٢)

٤ - ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

(ابراهيم: ٤٢)

٥ - ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ

﴿ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

(الحج: ٤٢ - ٤٤)

٦- ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(الحج: ٤٨)

٧- ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(القلم: ٤٤، ٤٥)

٨- ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾

(المزمل: ١١)

٩- ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾

(الطلاق: ١٧)

قبل الحديث عما يكون للباطل من املاء واستدراج أود أن أشير إلى علاقة هذا الفصل

«بانتصار الحق وظهوره» وهو عنوان الباب السادس الذى يندرج تحته «ما يكون للباطل من إملاء واستدراج» عنوان هذا الفصل . فان انتصار الحق وبقاءه يقابله اندحار الباطل وذهابه .

وقد يغيب ذلك عن كثير من اولئك الذين تخدعهم المظاهر عن الحقائق وتصرفهم الرغائب عن العواقب ويؤخذون بالمقدمات عن النتائج .

قد يخدعهم ما يرونه من زهو الباطل وزينته . فى عمر محدود وزمن معدود . وتصرفهم رغبتهم فى متاع الحياة عن حقيقة الحياة وحب الأشياء عن عاقبة الأشياء . ويحبون العاجلة وهى مقدمة ويذرون الاخرة وهى النتيجة والعاقبة .

عندئذ يفتنون ولا يستطيعون أن يدركوا أن أهل الباطل يملى لهم ويستدرجون وأن عاقبة أمرهم كما ذكر الله عز وجل :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(الانعام : ٤٤، ٤٥)

فلزم الحديث عما يكون للباطل وأهله من إملاء واستدراج حتى لا يظن أن ما يعطى له وما يفتح عليه دليل تمكين وبقاء وغلبة وانتصار. وقد يحمل ذلك بعض الناس على اتباع الباطل ومعاداة الحق أو نسيانه . وقد يُسَوَّل لهم أنهم يتعاملون مع الواقع وهم يرون ما للكفر من غلبة وما لأهله من علو فى الأرض فيسارعون فيهم ويسلكون سبلهم . فاذا تبدل الحال وقع الندم واقبلت الحسرة ورأيت اولئك الذين تمنوا مكان المستدرجين يقولون :

﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(القصص : ٨٢)

وهذا أمر قد يتكرر فى حياة الناس ولا يأخذون العبرة مما مضى والعظة مما يقع وينسون أن سنن الله لا تجامل ولا تحابى وأن الحق هو المنتصر وله العاقبة مهما لقى من جفاء وصاحب أهله من بلاء. وأن الباطل ذاهب زاهق مهما أعطى من إملاء وأوتى أهله من عطاء.

من أجل ذلك رأينا بيان القرآن فى استدراج المكذبين وإمهالهم داعيا إلى التمسك بالحق والثبات عليه محذرا من الاغترار بالباطل أو الركون إليه ورأينا فى مصارع المكذبين على مر العصور عبرة للإنسان حيث كان وتبصرة لأهل الإيمان بالحق وتثبيتا لهم وموعظة وذكرى.

والإملاء والاستدراج الذى يكون لأهل الباطل فيه امتحان للنفوس وتمييز للصفوف.

فكم من ناس تستخفهم زهرة الحياة الدنيا وزينتها. وقليل منهم اولئك الذين ينظرون الافق البعيد ويرون طلائع الفجر ـ والناس تغمرهم ظلمات الليل. وقليل منهم من يرقب الغد ويخشى ما يقع فيه. مع أن الغد لِنَا ظِرِهِ قريب والاستدراج والاملاء يجعل صاحبه يذكر يومه وينسى غده ويغلق عينه عما يقع فى الأرض من حوله. والأرض ساحة استقبال ووداع وعلى ظهرها أحياء وفى جوفها أموات ولكن المفتون بدنياه لا يرى ما يراه الناس وهو فرح بطر يرى الموت لغيره ولا يراه لنفسه.

وقد اقتضت حكمة الله ورحمته أن تكون العبرة فيمن يستدرجهم ويملى لهم عبرة للزمن كله وآية تحذر من اتباع الباطل وتدعو إلى اتباع الحق.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾

(محمد: ١٠)

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ

كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(غافر: ٢١ ـ ٢٢)

وسنن الله مع الخلق لا تتبدل ولا تتحول يستدرج من يستدرج ويملى لمن يملى له ثم يؤخذ وهو فى قمة نشوته وفى غمرة بطره وغفلته ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾.

وما من احد من الخلق يُعجز أمره. وما من شىء يعزب عن ربك أو يخفى شأنه. والاخرون كالأولين مأخوذون بما عملوا وسنن الله لا تجامل ولا تحابى.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾

(فاطر: ٤٣، ٤٤)

ألا إن من رحمة الله بخلقه أن يبين لهم ما هم صائرون اليه بأعمالهم حتى لا تشغلهم المقدمات عن النتائج والرغائب عن العواقب. وفى آياته فى الأنفس وفى الآفاق عون لهم على اتباع الحق واجتناب الباطل ـ وهم يرون بأعينهم آثار من كذبوا بالحق فاستدرجوا وكان عاقبة أمرهم خسرا.

ولا حجة بعد إرسال الرسل وانزال الكتب وتبين الرشد من الغى ولا عذر لأحدٍ بعد بيان وهدى :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾

(النساء : ١١٥)

ومن البيان ما ذكر من استدراج أهل الباطل ومن إملاء لمن كذبوا بالحق . ليعلم أن ما يملى لهم ليس بخير لأنفسهم وليس بنصر لباطلهم وإنما هى الإهانة فى أشد صورها أن يؤخذ الإنسان فى إملاء وأن يعذب فى استدراج :

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾

(آل عمران : ١٧٨)

وفى ذلك انتصار للحق أيما انتصار وإبطال للباطل أيما إبطال . وأى انتصار لأصحاب الحق أعظم من أن يأتيهم نصر الله بعد فتنة وابتلاء واستيئاس وزلزال ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟﴾ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

(يوسف : ١١٠)

وأى هوان لأهل الباطل أشد من أن يأتيهم بأس الله وهم فى نشوة فرح بما أوتوا ولذة بما أعطوا . يأتيهم بغتة وهم فى غفلة ﴿**فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون**﴾ . فان الإملاء الذى يكون لهم يغريهم بالاستماع والمزيد من المظالم والآثام ﴿**إنما نملى لهم ليزدادوا**

إثماً﴾. فإذا أخذوا. كان أخذا مما أحبوه إلى مصير لا يفلتون منه ولا يصرفون عنه. . **﴿ان الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته﴾**. **﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾** (هود: ١٠٢). كما جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى موسى رضى الله عنه.

والاستدراج فيه ما فيه من إهانة للدابة المستدرجة حين تؤخذ من لذة إلى لذة. على التدريج وهى تظن فى غباء أنها تصل إلى مزيد من متاع ومنفعة وما تدرى أنها تؤخذ إلى عقاب وحسرة:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾

(الأعراف: ١٨٢، ١٨٣)

«قال بعضهم معناه سنأخذهم قليلا قليلا ولا نباغتهم، وقيل معناه سنأخذهم من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به فيركنون إليه ويأنسون به فلا يذكرون الموت. فيأخذهم على غرتهم أغفل ما كانوا ولهذا قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، لما حمل إليه كنوز كسرى «اللهم انى أعوذ بك أن أكون مستدرجا، فإنى أسمعك تقول: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾[1]».

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾

(القلم: ٤٤، ٤٥)

الحديث الذى يكذبون به يحتمل أن يكون القرآن وهو الحق، ويحتمل أن يكون يوم القيامة وهو حق.

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾[2]» .

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة: درج. (٢) تفسير الماوردى.

أحـــدها : سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون، قاله السدى.
الثانى : نُتبع النعمة السيئة وننسيهم التوبة: قاله الحسن.
الثالث : نأخذهم من حيث درجوا ودبوا، قاله ابن بحر.
الرابع : هو تدرجهم إلى العذاب بادنائهم منه قليلا بعد قليل حتى يلاقيهم العذاب من حيث لا يعلمون لأنهم لو علموا وقت أخذهم بالعذاب ما ارتكبوا المعاصى وأيقنوا بآمالهم.
الخامس : ما رواه ابراهيم بن حماد: قال: كم من مستدرج بالاحسان إليه وكم من مغبون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه.

والاستـدراج: النقل من حال إلى حال كالتدرج. ومنه قيل درجة وهى منزلة بعد منزلة: ١ هـ.

ذاك هو المصير لمن كذب بالحق وتلك هى العاقبة لمن صَدَّ عنه واحتمى بالباطل. والله وحـده هو الـذى يستدرج هؤلاء ويملى لهم. الله الذى لم يخافوه وهم يخالفون رسوله ويحـاربون من يهدون بالحق وبه يعدلون. هو وحده هو الذى يستدرجهم ويأخذهم ويمهلهم ولا يهملهم. الله الذى ينسون قوته ويذكرون قوتهم «يرخى لهم العنان ويملى لهم فى العصيان والـطغيان. استـدراجـا لهم فى طريق الهلكة، وامعانا فى الكيد لهم والتـدبير. ومن الذى يكيد لهم ؟ إنه الجبار ذو القوة المتين. ولكنهم غافلون والعاقبة للمتقين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون».
﴿فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث﴾.

وهو تهديد مزلزل.. والجبار القهار القوى المتين يقول للرسول صلى الله عليه وسلم - خل بينى وبين من يكذب بهذا الحديث.. وذرنى لحربه فأنا كفيل به. ومن هو هذا الذى يكذب بهذا الحديث ؟.. إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف. هذه النملة المضعوفة. بل هذه الهباءة المنثورة. بل هذا العدم الذى لا يعنى شيئا أمام جبروت الجبار القهار العظيم.. فيا محمد. خل بينى وبين هذا المخلوق. واسترح أنت ومن معك من المؤمنين. فالحرب معى لا معك ولا مع المؤمنين الحرب معى. وهذا المخلوق

عدوى. وأنا سأتولى أمره. فدعه لى. وذرنى معه. واذهب أنت ومن معك فاستريحوا. أى هول مزلزل للمكذبين، وأى طمأنينة للنبى والمؤمنين ـ المستضعفين ؟.

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف. ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملى لهم إن كيدى متين﴾.

وإن شأن المكذبين، وأهل الأرض أجمعين. لأهْون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير. ولكنه ـ سبحانه ـ يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان. وليعلموا أن الامان الظاهر الذى يدعه لهم هو الفخ الذى يقعون فيه وهم غارون. وأن إمهالهم على الظلم والبغى والإعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير. وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة. ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب. مستحقين للخزى والرهق والتعذيب.

وليس أكبر من التحذير، وكشف الاستدراج والتدبير، عدلا ورحمة، والله ـ سبحانه ـ يقدم لاعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته فى هذا التحذير وذلك النذير ـ وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم، فقد كشف القناع ووضحت الامور.

انه سبحانه يمهل ولا يهمل. ويملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته. وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته التى قَدَّرها بمشيئته ويقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ذرنى ومن يكذب بهذا الحديث﴾. وخل بينى وبين المغترين بالمال والبنين والجاه والسلطان فسأملى لهم. وأجعل هذه النعمة فخهم، فيطمئن رسوله ويحذر أعداءه. ثم يدعهم لذلك التهديد الرعيب[1]».

وذاك ما وقع للمكذبين بالحق من قبل وما جرى مع المستهزئين بالرسل:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (الرعد: ٣٢)

(١) الأستاذ سيد قطب، فى ظلال القرآن.

فترك أهل الباطل فترة ليس نسيانا لهم أو غفلة عنهم . والاملاء للظالمين ليس تكريما لهم كما يظنون ـ أو اهانة لغيرهم ـ كما يتوهمون . وانما هو الاستدراج إلى العذاب من حيث لا يشعرون :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ
هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ
وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟

بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(ابراهيم : ٤٢ ـ ٥٢)

ومن يتدبر القرآن يـر ما وقع من قبل مع أقوام وأقوام و يـر ما يقع مع أمثالهم فى كل زمان ومكان ﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

(الحج : ٤٢ ـ ٤٤)

والأرض قد سُكِنَت من بعد هؤلاء واولئك وبقيت آثارهم خاوية خالية تدل عليهم وتسوق العبرة لمن بعدهم :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

(غافر: ٨٢)

وكم فى الأرض من عبر وعظات وكم فيها من دُورٍ قد خلت وأقوام قد ذهبت وقرى ظالمة قد أخذت ودمرت فما بكت عليهم السماء والأرض . ولا رُئى منهم ـ بعد هلاكهم ـ حراك . ولا سمع لهم صوت :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾

(مريم : ٩٨)

وبهلاكهم تخاطب أجيال من بعدهم فيعى الدرس ناس ويعمى عنه آخرون ﴿**فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها**﴾.

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا
أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن
يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا
تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ
ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

(الحج: ٤٥-٤٨)

واذا كنا قد رأينا من فتن بزينة قارون وتمنى أن يكون له ماله. ومن أبصر حقيقته - وأنه مستدرج وَبَصَّرَ غيره. فان ساحة الحياة الدنيا لا تخلو من هؤلاء وأولئك. لا تخلو من اولئك الذين يريدون الحياة الدنيا فيتمنون ما أوتى قارون. ومن الذين يقاومون هذا الميل ويُبَلِّغُون ويهدون بالحق وبه يعدلون.

وآيات الله تتلى على هؤلاء وأولئك. وستظل تتلى وتسمع. فلا يستدرج أولو النعمة وهم على جهل بالعواقب. ولا يملى لظالم دون بيان وتحذير وانذار. ولا يدعى أحد إلى الحق دون تبصرة بحقيقة ما يدعى إليه أو ينهى عنه. ودون بيان للعاقبة فى الحالين.

سيظل حديث القرآن يسمع أبد الدهر ويقرأ آناء الليل وأطراف النهار ويشاهد تأويله فى شئون الخلق ويرى تصديقه فى القضاء الواقع فيهم والقدر النازل بهم.

فلا يرى الباطل على غير ما أفاد القرآن وبين فى ذهابه وخسران أهله. ولا يرى الحق

دون ما قرر القرآن وأظهر فى نفعه ومكثه وحسن عاقبته ليعتصم من يعتصم بالحق فى طمأنينة وثقة ويستمسك من يستمسك به فى يقين وثبات وهو يرى النتائج والعواقب لمن اتبع الحق ولمن اتبع الباطل.

سيظل حديث القرآن محذرا ومبصرا ومذكرا ومنبئا **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة﴾ ﴿فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾** (طه: ١٢٣، ١٢٤).

وأى عذر لمكذب وهو يبلغ بالعاقبة قبل أن تكون، وبالنتائج قبل أن تقع. ويدعى إلى اتباع الحق فى سعة من أمره. واجتناب الباطل قبل أن يقع فيه. أو تحيط به خطيئته.

أى عذر له فى اصرار وكفر وتكذيب وهو يسمع ما يسمع من تهديد ووعيد:

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا
وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ
الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ
رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ
فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن
كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ
وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ
رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾

(المزمل: ١١ - ١٩)

ان القول فى ذلك كله قول فصل وما هو بالهزل. والحديث حديث حق. فى كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن إمهال المكذبين إلى حين. وحين يرون ما يوعدون. تتضاءل الايام والسنون:

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(الاحقاف: ٣٥)

ان هذا القول الفصل لا يغيب دليله ولا يبطىء تأويله. وما أحد بقادر أن يفر من عقاب. أو يفوت من حساب. ما أحد بمستطيع أن يفلت من موت. أو ينفذ من أقطار السموات والارض ولا غيبة ولا غفلة عن الخلق ولا نسيان ولا فوت.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾

(الاعراف: ٦، ٧)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾

(المؤمنين: ١٧)

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾

(طه: ٥١، ٥٢)

القول قول فصل. وما هو بالهزل. وفى الانسان أدلته:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾

(الطارق: ٥-١٧)

أرأيت ان امهال الكافرين واستدراج المكذبين لم يكن دون بيان وتحذير ؟

أرأيت كيف أفاض القرآن الكريم فى التبصرة والتذكرة . وجعل الانسان وهو فى سعة من أمره يبصر ما هو مقبل عليه ويرى ما هو صائر إليه ؟

لا إبهام ولا غموض ولا عتمة فى المقدمات أو النتائج .

فمن اتبع الحق عرف ما يؤدى إليه ومن اتبع الباطل عرف ما يصير إليه . ومن جاء إلى الدنيا يعلم أنه يمر بها ولا يقيم . ومن اعطى من متاعها يوقن أنه إلى زوال وهو يرى بعينه أن ساحة الأرض تستقبل فى كل لحظة ناسا وتودع آخرين . فلا الذاهب حمل من متاعها شيئا ولا القادم فيها يقيم .

كما يرى أن الناس لا يُستأذنون وهم يقدمون أو يرحلون ـ وحاشا أن يكون :

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾

(لقمان : ٣٤)

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(النحل : ٤٠)

هذا القول الفصل هو الحق الذى يرى الانسان صدقه فى نفسه وفى كل شىء من حوله . والمستدرج قد غفل عن نفسه بل عمى عن الحق الذى يخاطب به حتى فى النعمة التى يستدرج بها والتى لو تدبرها لردته إلى الحق وكفته عن الباطل . فما غاب الحق أبدا ولا توقف بلاغه فى إملاء أو استدراج . ولقد حاول الرجل المؤمن ـ وهو يحاور صاحبه أن يدله على الحق من خلال ما أعطى من نعمة تُذَكِّر بمشيئة الله وفضله . فأبى الحق وأسند الفضل لنفسه . ووقع فى الباطل والنعمة تدله على الحق وما أفاق لدلالة النعمة وما تدعو إليه إلا عندما أحيط بثمره عندئذ أدرك أنه كان مبطلا حين أشرك :

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ

ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ
بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا
قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ
رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن
تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ
عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ
بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ
مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

(الكهف: ٣٧ - ٤٤)

مستدرج ذُكِّر فلم يذكر. ودعى إلى الحق فلم يبصر. وأصر على الباطل فى نسبة العطاء إلى نفسه وإشراكه بربه. وعندما أحيط بثمره أفاق من غفلته وتحسر على تعلقه بباطل قد ذهب. ونطق بالحق وتمنى أن لو استمسك به ولم يحد عنه ﴿**ياليتنى لم أشرك بربى أحدا**﴾. والنعمة من قبل زوالها ومن بعد تدل على هذا الحق فى الاعتقاد وترشد إليه. فما غاب الحق ولا توقف بلاغه فى إملاء أو إهلاك. ولو أحسن الانسان التدبر لرأى دلالة الحق فى كل شىء وأخضع نفسه للحق فى كل شىء. والحق فى النعماء أن يشكر معطيها ولا يكفر. وألا يرى الإنسان نفسه بها بل يرى نفسه بالحق الذى تدل عليه وتدعو إليه. ودلالة النعمة على من أنعم والخلق على من خلق هى الحق الذى تصان به النعمة ويشيع البر والتراحم. وإنما يجىء الطغيان بالنعمة وتتقطع الروابط حين تنسب النعمة لغير من أعطاها ويعبد من لا يخلق. وهذا هو الباطل الذى لا سند عنده ولا برهان له.

وذاك ما يبرأ منه كل انسان فى ساعة موت أو عذاب:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(غافر: ٨٤، ٨٥)

نعوذ بالله أن نستدرج بنعمة أو نفتن بعطاء. ونسأل الله ألا يفتنا بما أنعم به علينا وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه وأن يرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه.

ومن الحديث عن استدراج المبطلين إلى الحديث عن العاقبة لنرى ما يكون فيها ولمن يكون الفوز والانتصار:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾

(الشورى: ٧)